محمد علي باشا ومعادن الذهب

نُشر في هذه الاثناء كتاب « مناهج الالباب المصرية في مباهج الآداب العصرية » وهو مقالات في مواضيع شتى انشأها المرحوم رفاعة بك رافع الذي كان من امراء الانشاء في عصره. وهي مثل مقالات المجلات العلمية والادبية في هذا العصر ولبعضها فائدة تاريخية لاتقدَّر لانها تصف ما حدث في عهد المؤلف . من ذلك وصفهُ لذهاب محمد علي باشا الى السودان للبحث عن مناجم الذهب وقد رأينا ان ننقل هذا الفصل برمته لفائدته ولانهُ يدل على اسلوب الانشاء الذي كان رفاعه بك رئيسهُ في عصره قال

وامهات معادن الذهب المستخرجة في هذا العهد هي معادن بلاد الامريقة تخرج من جرف الارض اومن تنظيف الرمال الذهبية . وفي بلاد افريقة التبر فرع عظيم في تجارة السودان وليس في بلاد اوربا الاَّ معادن سيبرن ببلاد الموسقو ومعادن بلاد المجر في مملكة النمسا . وفي آسيا معادن الذهب ورمالهُ . واما معادن الفضة الشهيرة في بلاد امريقة باقليم برو وغيره وهي التي تعطي كمية عظيمة من الفضة المتعامل بها في ايدي التجار في بلاد مقسيقا ازيد من ثلاثة آلاف معدن مستخرج وكذلك معادن بلاد بروبامريقة فانها مثرية جدًّا ومعادن قاليفورنا المشهورة بالذهب المشبع التي استكشفت سنة ٦٥ ومائتين والف وهي في جمهورية مقسيقا . فبلاد افريقةلها شبه بامريقة فلهذا ارسل المرحوم محمد علي باشا عدة مرات من يلزم من المعدنجية لتجريب معادنها فلم يقفوا منهم على حقائق تامة في شأن ذلك فشك في مهارتهم وفي اجتهادهم

وقد كان حكمدار بلاد السودان ارسل اليهِ عدة فلزات من الذهب على سبيل العينة فكاد يطير بها فرحًا فارسل في نحو سنة مائتين والف كلاً من مسيو روسيجير ومسيو بريالي الكيماوي فالاول كان قد ذهب الى المعادن قبل الثاني بكثير فشرع في التجربة ورجع الى الخرطوم فوجد مسيو بريالي قد اقام بها ينتظر الفصل المناسب فكتب مسيو روسيجير من الخرطوم الى المرحوم محمد علي ما مضمونهُ ان النفر الذي يشتغل في المعدن باليومية يستخرج ذهبًا بعشرة فرنكات كل يوم يعني بار بعين قرشًا ميريًّا وكان ذلك في مدة ولاية خورشيد باشا لحكمدارية السودان . واخبر المعدنجي الحكمدار بذلك فلم يصدق ذلك الحكمدار المذكور واما المعية السنية فاخذت كلام المعدنجي المذكور قضية مسلمة واعتقد ذلك ايضًا المرحوم محمد علي وتباشر بانهُ اذا صار استخراج المعادن على هذه الكيفية يصير

اغنى الملوك . وانتقلت الرغبة في الزراعة التي بها غذاء اهل مصر والتي هي كالبن لرضاعهم الى الرغبة في المعادن فصار مطمح النظر من النيل انهُ وسيلة المسير فيهِ لاستخراج الذهب وجلبهِ وكانما هذا الغرض هو المقصد منهُ بالاصالة

ثم لما اعتدل الوقت لمباشرة السفر الى المعادن خرج مسيو روسيجير ومسيو بوريانى من الخرطوم ومعهما من الخفر الف من عساكر الجهادية تحت رئاسة مير اللوى مصطفى بك وصاروا جميعاً حتى وصلوا الى فازغلو وشرعوا في استخراج المعدن والبحث عنهُ فوجد حفائر حفرتها العبيد قبل ذلك وبجوانبها قصاع من الخشب فكل واحد من المدفجية اخذ قصعة وعمل صنعة التنظيف للرمل الخارج من الحفرة فلم يظهر لاحد منهم ربح بل ما تبقى من بعد التصفية انما هو فلزات مشوبة بالحديد والتراب . ثم كرروا التجربة فلم تنتج ازيد من ذلك فان مسيو بوريانى اخذ قنطارين من الرمل وصفاهما فلم يخرج منهما سوى حبة ونصف من الذهب وكذلك مسيو روسيجير . ثم توجهوا الى جهة سنجه وهي ابعد محل فقهُ المرحوم اسمعيل باشا ومشهور بكثرة الذهب فكشوا فيهِ ليلة بوادٍ يسمى خور البابا كان العبيد قد حفروا فيهِ حفائر لاستخراج الذهب ثم ذهبوا الى محل يقال لهُ زنبو حولهُ غابات عظيمة ووديان وسفوح منخفضة ووصلوا الى وادي يسمى وادي توماتو جاري المياه فوجدوا فيهِ حفائر وقصاعاً معدة لتنظيف الذهب وتنقيتهِ فكانت نتيجة التجربة كالسابقة فاقتضى الحال ان يمروا بغابات غير مسلوكة فوصلوا الى جبل ابو غولي ونزلوا بهذه الجهة المشهورة بمعادنها الذهبية فارسلوا بطلب شيخ السودان هناك ليستعلموا منهُ عن ذلك فابى الحضور فرجعوا من طريقهم بوادي ابو غولي نفسهِ فكان يبساً لا ماء فيهِ بكثرة وانما كانوا يجدون في طريقهم في الحفر بعض مياه و بعض حفائر حفرها العبيد وعلى حكايتهم ان هذه المعادن التي بهذا الوادي كثيرة الذهب ثم بعد ذلك بسير مسافة ساعة صوب الغرب وجدوا وادياً آخر عالي الحواني الصخرية فلم يقفوا عندهُ و بينما هم سائرون في اباطحهِ قبض مسيو بوريانى قبضة من الرمل فوجد بها اربع فلزات من الذهب كل فلز منها وزن حبة فساروا من وادي الى آخر حتى وصلوا تجاه جبلي سنجه وغريزه و بسفحهما بنو شنقول وسنجه ولهم مساكن لطيفة مقبوة يقال لها توكول وعدتها تسيف عن اللي بيت وعرض جبل سنجه في الدرجة العاشرة والعشرين دقيقة شمالياً ولا يزرع سودانها الا قليلاً من الذرة والدخن حول مساكنهم فلما رأوا العسكر قربوا من مساكنهم ولما هاربين فدخل العسكر مساكنهم فوجدوا بها الآلات والادوات المستعملة لتنظيف الرمل واستخراج الذهب منهُ فبعث روَّساء العسكر لطلبهم فلم يحضروا

ولا حضر المندوبون في طلبهم ولا ظهر عنهم خبر ولا بان لهم اثر فاحترس العرضي كل الاحتراس وضربت الخيام في محال عالية من الوادي خوفاً من الهجوم فظهر على حين غفلة فوق الجبل وعلى البعد عدة من العبيد حتى دنوا من العرضي وصاروا يرمون العساكر بسهامهم وحرابهم وكان العسكر قد سكنوا بمساكنهم فهجم عليهم العسكر فهربوا ثم عادوا وصاروا يحاربون الى الليل

ولما اعتكر الليل احاطوا بالعسكر من كل جانب ولم يشتت شملهم الا بضرب النيران فلما اصبح الصباح صعدوا على ذروة الجبل وفوقوا نبالهم وسهامهم على العسكر كالامطار ومع هذه الحروب الخطرة فكان مع المعدنجية مائة نفر يحفرونهم فاشتغلوا في وقت الحرب بتجربة النهر الخارج من هذا الجبل فحصل مسيو برياني على فلزات ذهبية خرجت بالتنظيف عدة مرات ووضعها في زجاجة ليمتحنها فيما بعد ولا زال العبيد يتغصون على العسكر حتى تركوا جبل سنجه بدون تتميم التجربة فاقتفى السودان اثرهم الى جهة وادي بولغيدية فاخذوا قنطارين من دقيق رمل هذا الوادي وغسلوها وحسبوا زمن شغلهما فكلما خرج منها وضع في الزجاجة ووجدوا ان الذخائر كادت تنفد منهم فرجعوا من طريق سنار وقد جر بوا تجاريب كثيرة في طريقهم وكلما تحصلوا عليه من الفلزات وضعوه في الزجاج وسدوا عليه وكانوا يجدون في عودتهم كثيراً من المعادن الحفرية التي حفرها العبيد ولم يجد العسكر في طريقهم بيوتاً ولا مساكن مسكونة بأحد لان العبيد لخوفهم من العساكر كانوا يهربون منها فلذلك لم يقف المعدنجية على حقيقة الحال ولم يمكنهم ان يذهبوا الى المحلات المشهورة لحصول الذهب كجبل دوك لفقد الذخيرة وقد وجدوا على شطوط نهر هادي عدة آبار مستديرة عميقة يبلغ عدها نحو ستمائة بئر عمق البئر الواحدة اربعة وعشرون قدماً وقطرها نحو اربعة اقدام وفي قاع كل بئر ممشى يتوصل اليها بواسطة سلالم صغيرة

وهذا النهر كثير الذهب جداً فقد عثر مسيو بور يافي على الذهب في ثلاث صوانات اخذها من هذا النهر وكذلك مسيو روسيير وجد به قطعاً من الاحجار مشتملة على الذهب

فباستكشاف معادن هذا النهر اطمأنت قلوب اهل العرضي وفرحوا به فرحاً شديداً حتى نهض العساكر على الانقضاض بهذا النهر اعتماداً على حكاية اهل الجهة وجمعوا ما عثروا عليه من الحجر ثم عادوا الى مدينة الخرطوم التي خرجوا منها من نحو ستة اشهر فلم يجدوا الحكدار فيها حيث كان قد توجه لقتال الحبشة المغيرين على الاطراف فاخذوا في تحليل ما تحصلوا عليه فوجدوا المعينات مختلفة الربح وذلك ان مسيو بور يافي عمل التجربة التنظيفية

بطريقة الغسيل بالزئبق فكانت النتيجة في احدى التجربات بالنسبة الى اقليم كاميل لم يحتو قنطار الرمل الا على ثلاث حبات من الذهب فالرجل الذي معهُ اثنان مساعدان لنقل الماء والتراب اذا كان ينظف كل يوم عشرة قناطير من الرمل الى اثني عشر فلا يجمع الا سبعة قروش ميري من الذهب بالنسبة الى رمال اقليم فاشقار ولا يتحصل الا على ثلاثة قروش ونصف من الذهب في اليوم الواحد فكتب بهذه التجربة خطاباً وارسلهُ مع العينة الى الحكمدار خورشد باشا فارسل الحكمدار المذكور ذلك بصحبة مسيو بوريانى الى المعية السنية وكان ذلك في سنة اربع وخمسين ومائتين والف

واما تجربة مسيو روسيجير فكانت نتيجتها بخلاف ذلك فان الاحجار المعدنية الذهبية يتحصل منها اثنان في المائة يعني ان صافي المائة درهم مثلاً درهمان واما الذهب الصفائحي الذي يوجد في المعادن كالعروق فانهُ يتحصل في كل الف قنطار من مائة وستين الى مائة وثمانين صفيحة من الذهب يعني من ثمانمائة وخمسة وثلاثين درهماً الى الف ومائة وستة وثلاثين درهماً من الذهب وقيمة الدرهم ثمانية وثلاثون قرشاً. وتحقق عند هذا المعدنجي ان الشخص الواحد ينظف كل يوم ثلثمائة وخمسين اقة من الرمل فيتحصل منها ذهب قيمتهُ من ثمانين قرشاً الى مائة قرش فكان هذا المعدل يزيد عن معدل مسيو بوريانى عشرين مرة فلما اطلع المرحوم محمد علي على المعدلين ووجد الفرق بينهما جسيماً لم يتمالك نفسهُ من الغضب على مسيو بوريانى لانهُ كان يميل بالطبع لما فيهِ الارجحية في الربح فبهذا مال الى تقرير مسيو روسيجير ولاجل الوقوف على الحقيقة صمم على السفر الى بلاد السودان لتصير التجربة امامهُ مع تقدمهِ في السن وشيخوختهِ وطبيعة اقليم الاقطار السودانية وتعب الاسفار الشاقة بها الا انهُ كان محفوظاً بالعناية الربانية ومحروساً بالتوفيقات الصمدانية كما قيل

ان حل فالشرف التليد انيسهُ او سار فالظفر الطريف قرينهُ
فالدهر خاذل من اراد عنادهُ ابداً ورزاق العباد معينهُ

وامر مسيو بوريانى بالذهاب قبلهُ بعدة ايام فاراد ان يتخلص من ذلك وقال ان طريقة التحليل بالزئبق التي ملكها مسيو روسيجير ربما يمكن ان ينال بها اكثر من طريقة الشمسة التي عليها العمل عند السودان فكانهُ سلم ان طريقة صاحبهِ مربحة وكان قولهُ ذلك لمحض الاعتذار والخروج من الورطة ثم قال ايضاً ان الرمل لا مانع من ان يعطي كل يوم للشغال نحو اربعين قرشاً ومع انهُ قال ذلك لمجرد المسايرة الا ان المرحوم محمد علي اخذهُ بالقبول وفرح بهِ

وكان المرحوم محمد علي جلب من فرنسا معدنجيًّا شهيراً بعلم المعادن وهو مسيو ليفبره كان سبق استخدامهُ في مدرسة المعادن المصرية وكان مسيو بورياني قد سافر الى السودان امتثالاً للامر العالي وبعدهُ بثلاثة ايام ركب المرحوم محمد علي البحر وصحبتهُ خير الدين بك قبودان السفن وعدة اشخاص منهم مسيو ليفبره المعدنجي ودارنود بك المهندس ولمير بك المهندس واحمد افندي يوسف الجشنجي فسافر بالسلامة بالنيل حتى دخل السودان

اركب النيل ما استطعت ففيهِ راحة للفتى وغاية بغيه
كم تفرجت حين سافرت فيهِ في بلاد وكم ظفرت بتيه

فلما دخل مدينة الخرطوم كان يوماً مشهوداً فحضر جميع من هناك للتشريف فلطفهم جميعاً ودعوا لهُ بخير وفرحوا بهِ غاية الفرح واثنوا عليهِ بجميل الثناء ومكارم اخلاقهِ كما قيل

كل الامور تبيد عنك وتنقضي الاَّ الثناء فانهُ لك باقي
لو انني خيرت كل فضيلة ما اخترت غير مكارم الاخلاق

ثم امر مسيو ليفبره المعدنجي ان يتوجه الى جبال موبه وسكادى وهي على ثمان فراسخ في الجنوب الغربي من سنار ليجرب معادن الفضة ومعادن النحاس التي هي على ضفة النيل باقليم روسيري وارسل خلفهم كلاً من مسيو بورياني ودرنود بك واما حضرتهُ العلية فقد بقي في الخرطوم ليستقبل رؤساء بلاد السودان الوافدين عليهِ من جميع الجهات على اختلافها كلهم ووعدوهُ بالمساعدة على مشروعهِ وان يعينوهُ بستين الف نفس للشغل اذا اقتضى الحال هذا القدر . ثم سافر الى جهة سنار ونزل باقليم روسيري وحضر اليهِ ملوك سنار وفازغلو وصار يستعلم منهم عن المعادن ومحل وجودها وعن احوال زراعة البلاد وما يناسبها وارشد رؤساء السودان الى طرق جديدة في الزراعة وفي الصنائع والفنون التي لا يعرفونها وامرهم بالحصول عليها واستعمالها لتصل نوبة التقدم للنوبة باكتساب وسائل المنافع المحبوبة المجلوبة وينوب الخيط الابيض من فجر الفنون عن الخيط الاسود من فجور الفنون وليكونوا من اهل التبصرة وتكون عندهم آية النهار مبصرة . ثم حضر المعدنجي ليفبره من جبل موبه واخبرهُ انهُ لم يجد اثراً لمعدن الفضة ولا معدن النحاس في المحل الذي حكى عنهُ مسيو روسيجير فنفر من الاقامة بهذه الجهة لعدم الحصول على مقصدهِ ولكن

على المرء ان يسعى لما فيهِ نفعهُ وليس عليهِ ان يساعدهُ الدهر

فرفع معسكرهُ ونهض الى اقليم فازغلو وكان احمد باشا قد ترلى حكمدارًا عوضاً عن خورشيد باشا وكان قد بعثهُ محمد علي الى محاربة جبال رجريج وكانوا عاصين فنوى ان ينتظر

عودة الحكدار بعد وصوله في ظرف ثلاثة ايام وصل المرحوم محمد علي الى قرية فامركو تجاه فازغلو وهي على ضفة النهر الازرق فضرب خيامهُ بها واعجبهُ حسنها وظرافتها فامر ببناء قصر فيها على اسمهِ ليذكر سفره بها وعين حالاً درفود بك لهذه المأمورية فهدمهُ البك المذكور وبنيت حولهُ الدور حتى صار بلدة شهيرة هناك سميت بمحمد علي وهي من الاثر الجليل الجلي الأ انها صارت محل التغريب يشد فيها المنفي الغريب

يا عين ان بُعد الحبيب وداره وفأت مرابعهُ وشط مزاره
فلقد ظفرت من الزمان بطائل ان لم تريهِ فهذه آثاره

ولما عاد احمد باشا من غزوه كان فصل المطر قد دنا والذخائر كادت تنفد وكان المرحوم محمد علي توجه الى اقليم فاشنغارو وكان قد بعث حين توجههِ احد مماليكهِ ليأخذ الرمل من وادي قراده فاستخرج المعدنجية من هذا الرمل نحو ثلاثة قناطير من الذهب اليسير القيمة القليل الجودة

ولما نزل المرحوم محمد علي في فاشنغارو وضرب خيمتهُ تحت شجرة تين والعسكر حولهُ ولم يبقَ معهُ من المأكولات الأ القسماط واليسير من الارز فشمت نفوس الجميع من قلة الزاد والحط والترحال بهذه الحالة ولام كل الناس مسيو بورياني على تأميل الباشا المذكور وتجسيمهِ لهُ في ربح المعادن الذهبية فجمع الباشا المذكور المعدنجية والمهندسين ليأخذ رأيهم فقرروا جميعاً على عمل تجربة جديدة بطريقة اخرى مفيدة وهي ان يجمع الرمل من جميع المحلات بمقادير متناسبة ويعلم كمية ما يخرج منها فخرجت النتيجة بهذه التجربة مثل السابق في قلة الربح ولكن قد اكتشف مسيو بورياني في بئر من آبار وادي قراده في عمق اثنين وعشرين قدماً طبقة معدنية يتراءى انها كثيرة الذهب ليمتحنها مع التأني وقبل ان يرحل مسيو ليفبره المعدنجي من الخرطوم كان عثر ايضاً على رطلين من الزئبق في مخازن الحكدارية فأحب مسيو بورياني ان يعمل امتحانهُ لما اخذهُ بطريقة التحليل فسكت عن ذلك وصار منهمكاً على اتباع هذه الطريقة في التجربة فلم يشعر اذ وجد في قرار القزازة جرماً معدنياً ذهبياً مخلوطاً بغيرهِ ولم يعرف سبب هذا الغش فاخبر غيطاني بك ومسيو لمبير بك بذلك وهم اخبروا المرحوم محمد علي . فمسيو بورياني اتهم بعض اخصامهِ انهم ارادوا ان يفسدوا عليهِ تجربتهُ واراد باخبار من ذكر البحث عن صاحب الفعلة فادعى احمد افندي الجشنجي ان مسيو بورياني المذكور هو الذي خلط الذهب بالزئبق عمداً لعدم نجاح تجربتهِ واخبر بذلك امام الباشا وصدق عليهِ الحاضرون في اليوم الثاني استعمل مسيو بورياني طريقة الغسل

بالقصاع فغسل مائة قنطار من الرمل مأخوذاً من فرش الوادي بجبال قراده فاستخرج منها نسعاً وأربعين حبة من الذهب

فهذه التجربة الكبيرة ظهر منها اشباع معدن وادي فاشنغار والذي جرب عينتهُ مسيو روسيجير سابقاً فوجد بين طريقة مسيو بوريانى ومسيو روسيجير فرق جسيم فبهذا الاختلاف الفاحش ضاق صدر الباشا المرحوم وفترت همتهُ حتى كاد ان يصرف النظر عن قضية استخراج المعادن ولكن عاد الى تجلدهِ وصبرهِ وامر بعقد جمعية تستخرج مقدار قيم مجاميع الاشغال التي حصلت كلها فبادرت الجمعية باستخراج ذلك فتبين انهُ لا يتحصل من عملية الصانع الواحد من الذهب الاَّ بقيمة ثلاثة قروش كل يوم

فمن هذا الوقت سقطت قيمة المعادن الذهبية من اعين الجميع وقلَّ اعتبارها فتغير خاطر المرحوم محمد علي من ذلك وداخلهُ اليأس من رواج معادن السودان ولو كان مسيو روسيجير حاضراً معهُ لسلاهُ وعللهُ بالاماني الكاذبة

واما مسيو بوريانى فقد كان حاضراً واخبر بالصدق ولم يدلس ولكن لكونهِ كان يهاب سيدهُ كثيراً فلم يستطع ان يذب عن نفسهِ فضرب عنهُ المرحوم محمد علي صفحاً وانعم على جميع المهندسين والمدنجية عند ارتحالهِ من السودان بركوبة ورخت مذهب وما استثناهُ من هذا الانعام ولا غض عنهُ البصر ويئس من وجود الذهب المشبع من بلاد السودان ولكن لم يظهر لهُ الحقد ولا صرف عنهُ النظر بل امر الجمعية ان تمكث وتبحث مع غاية الدقة عن الطريقة اللازمة لاستخراج هذه المعادن فكان العسكر المحافظون على اهل هذه النزوة الطيبة يعتقدون ان سيدهم أبقى هؤلاء المهندسين رمماً فقط وان اشغال هؤلاء المهندسين ليست الاَّ صورية فكانوا لا يساعدونهم على اشغالهم ولا يصرفون همتهم سوى اعطاء ما يلزم لتتميم التجربة وكان قد تعين لادارة المعدن خير الدين باشا فكان يسيء السلوك لانهُ كان مكرهاً على الاقامة بتلك الديار وترك وطنهِ فبهذا كان يعتقد ان الافرنج المدنجية هم السبب في طول غربتهِ فكان يجاهر بتقريعهم وتوبيخهم

ثم ان مسيو ليفبره اصابتهُ حمى شديدة وكان قد وعدهُ المرحوم محمد علي ان يعطيهُ بعد تمام الاشغال رتبة ميرالاي فكان على غاية من الاجتهاد فمات بالحمى وقبل موتهِ صرح بان تقرير الجمعية بعدم تربيح المعادن في السودان ليس بقطعي ولا ينبغي عليهِ حكم وانهُ لا ينبغي ان يقطع الرجاء بالكلية من ربح هذه المعادن لاسيما وان مسيو بوريانى قرر تقريراً شفاهياً يؤيد رأي ليفبره السابق وعبارتهُ ليس من ارباب الجمعية بتمامها من هو معتمد في

قوله فيها يخص قيمة ما يتحصل من الرمال من الذهب حيث جميعنا لا معرفة لهُ تامة باستخراج المعادن فلسنا متجرين في هذا الفن بل الظاهر انهُ لو صارت الادارة على صورة حسنة مستقيمة وصدق الممتحنون في تجاربهم وصار الاجتهاد في الاستخراج على وجه مرضي فلا بد ان تظهر نتائج عظيمة خصوصاً اذا كان المأمور بذلك من المعدنجية المتبحرين في هذا العلم ولهُ سابقة عمليات صحيحة . واما سفرنا هذا فلم يكن الاَّ محض مناظرة واطلاع على نفس الحال المعدنية بالبلاد السودانية مجرداً عن راحة الفكر والبدن وقوله في محله لان العرضي كان دائماً عرضة لاغارة السودان الهمل وكان بدون اهبة ولا ذخيرة وكانت عساكر الاتراك المحافظين على المعدنجية اشد عليهم عداوة من السودان

فبهذا لم يمكن الوقوف على حقيقة الحال من الاهالي وكانت التجاريب تعمل بالخوف والعجلة وكانت الامراض ايضاً من جملة الموانع ومع ذلك فقد صنع بتجربة مسيو بوريانو التي استمرت نحو ثلاث سنوات ان بعملية استخراج المعادن بالتبييد يعطي قنطار الرمل نحو خمس حبات من الذهب مع قبول الزيادة عن ذلك لو وجدت المعرفة والصداقة ومع هذا كلهِ فنقول ان ذهب السودان لا ينكر وان الاقطار السودانية التابعة للحكومة المصرية وان كانت دون اقاليم امريقة بكثير فهي كمصر ان لم تسعفها المعادن المتطرقة فمعادن الزراعة فيها محققة ولولا التغافل والتكاسل من بعض الحكام واتصاف بعض آخر بالجهل التام لكانت ايراداتها ومحصولاتها على اكمل نظام فان خصوبة ارضها عجيبة وحيواناتها نجيبة واخشابها جيدة ومعادنها متعددة فالمواليد الثلاثة فيها على غاية من الكمال . انتهى

في هذا الفصل امور كثيرة حرية بالنظر اولها اهتمام محمد علي باشا بما يزيد الثروة واستخدامهُ عملاء اوربا في ذلك واعتمادهُ عليهم واكرامهُ لهم ولو بعد ان ظهر لهُ انهم غير مخلصين في خدمتهِ . وثانيها علو همتهِ حتى بعد بلوغهِ من العمر عتياً . فان السفر الى اعالي السودان في ذلك العصر كان محفوفاً بالمشاق التي تقصر عنها همم الشبان . وثالثها ان الذهب لم يكن في متناول السودان كثيراً فيزيد على نفقات استخلاصهِ ولا يزال كذلك حتى الآن نعم ان السودانيين كانوا يأتون بالتبر الى مصر ولكن لا يبعد انهم كانوا يعملون في جمع الاوقية منهُ اياماً فلو اعطوا اجرة عملهم ما وفى التبر بها . ورابعها ان عبارة رفاعة بك على طوكيهِ ليست مما يرضى بهِ كتابنا الآن ولا مما يرضى بهِ كتَّاب العربية الذين سبقوهُ ولغة الترجمة ظاهرة عليها وهذا لا يحطُّ من فضلهِ لانهُ نشأ بعد ما خيم الجهل على هذه الربوع